(١٦)
الصبر

الخطبة الأولى :

أما بعد ، فيا أيها الإخوة المسلمون :

تحدَّثنا في الجمعة الماضية عن مقام من مقامات الدين ، ومنزل من منازل المقرَّبين ، وعملٍ من أعمال القلوب ، وعبادةٍ من أعظم العبادات الباطنة ، ذلكم هو : الشكر :

واليوم نتحدَّث عن مقام آخر يكمل الشكر ، وهو الصبر .

الإيمان نصفان :

فالإيمان كما رُوي في بعض الأحاديث نصفان : «نصف شكر ، ونصف صبر»[1] . وذلك أنَّ الإنسان في هذه الدنيا ما بين نعمةٍ يُنعم الله عليه بها ، وبلاءٍ يبتليه الله تعالى به . فواجبه عند النعمة : الشكر ، وواجبه عند البلاء : الصبر .

ولذلك قَرَن القرآن بين الأمرين : الصبر والشكر ، في أربع آيات من آياته حينما قال : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ (إبراهيم:٥) .

لا ينتفع بآيات الله ـ الآيات الكونيَّة المبثوثة في هذا الكون ، والآيات التاريخية التي يراها الإنسان في أيام الله سبحانه وتعالى ـ إلا كل صَبَّار شكور ، أي : كل مؤمن أصبح الصبر والشكر خُلقًا له .

لا بدَّ من شكر ، ولا بدَّ من صبر .

---

(١) رواه القضاعي في مسند الشهاب (١٥٩) ، عن أنس بن مالك ، وفيه يزيد الرقاشي وهو ضعيف زاهد .

OBEIKAN.COM

الصبر فضيلة دينية وضرورة دنيوية :

الصبر عُلِّق به خيرات الدنيا والآخرة ، فلا يستطيع الإنسان أن ينال خيرًا في الدنيا ولا في الآخرة إلا بالصبر . الصبر فضيلة دينية ، وضرورة دنيوية . لا تستطيع أن تنجح في عملك ما لم تتذرع بالصبر . لا ينجح الطالب ولا يتفوق ، إلا إذا صبر على الاستذكار والجد والمراجعة . لا ينجح الزارع ما لم يصبر على الزرع ويتعهده . لا ينجح التاجر ما لم يصبر على السفر والمشقة . لا ينجح إنسان في عمله إلا بالصبر .

قال الشاعر :

الصبر مفتاح ما يُرجَّى ... وكل خير به يكون
فاصبر وإن طالت الليالي ... فربما أسلس الحرون
وربما نيل باصطبار ... ما قيل : هيهات ما يكون

وقال آخر

وقلَّ مَن جدَّ في أمر يحاوله ... واستَصْحَبَ الصبر إلا فاز بالظفر

هذا في أمور الدنيا ، فكيف بأمور الدين؟

لا بد من الصبر ، ولهذا مدح الله الصبر ، وأثنى عليه ، وجعل جزاءه أعظم الجزاء .

كلُّ خير لا ينال إلا بالصبر :

النصر إنما ينال بالصبر ، كما قال النبي ﷺ لابن عباس : « واعلم أنَّ النصر مع الصبر »[1] وقال تعالى : ﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ (آل عمران:١٢٥) .

علَّق الإمداد على الصبر والتقوى :

إذا صبر الإنسان واتقى نجا من كيد أعدائه : ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ (آل عمران:١٢٠) .

---

(١) رواه أحمد (٢٨٠٣) ، وقال مخرجوه : صحيح ، والطبراني (١١/١٢٣) .

لا يكون الإنسان من أهل العزم ، وممَّن يستحق أن يكون من هؤلاء الرجال ، إلا بالصبر والتقوى : ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ (آل عمران:١٨٦) .

لا تُنال الجنة إلا بالصبر :

﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ (الإنسان:١٢) . ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾(الرعد:٢٣،٢٤).

ولذلك كان الصابرون دائما مع المؤمنين الممدوحين في القرآن الكريم : ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ (البقرة:١٧٧)، ﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ (آل عمران:١٧) ، ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ ﴾ (الأحزاب:٣٥)، ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ (الرعد:٢٢) . قرن الله الصبر بالتوكل : ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (النحل:٤٢).

لا تنال الإمامة في الدين إلا بالصبر واليقين :

قَرَنَ الله سبحانه الصبر باليقين ، فقال في قوم : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (السجدة:٢٤) . يقول ابن تيمية : إنما تُنال الإمامة في الدين بالصبر واليقين[١] . وقال الإمام سفيان بن عيينة تعليقًا على هذه الآية : أخذوا برأس الأمر فجعلناهم رؤساء[٢]، أي : أئمةً يُقتدى بهم في الدين . أخذوا برأس الأمر وهو الصبر ، وقد قال عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه : الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، فمن لا رأس له لا جسد له ، ومن لا صبر له لا إيمان له[٣].

---

(١) انظر : مجموع الفتاوي (٣/٣٥٨) .

(٢) انظر : مدارج السالكين (٢/١٦٠) .

(٣) رواه البيهقي في الشعب باب الصبر (٩٧١٨) .

هذه منزلة الصبر في الدنيا والآخرة . قال الله تعالى عن بني إسرائيل : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾ (الأعراف:١٣٧) . ويكفي أنَّ الله سبحانه وتعالى جعل معيَّته للصابرين : ﴿ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (الأنفال:٤٦). وجعل محبته للصابرين ، فقال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (آل عمران:١٤٦)

الصبر والصلاة :

ولهذا كان الصبر سلاحًا لا بدَّ منه للإنسان في معركته مع الحياة ، لا يستطيع أن يخوض معترك الحياة ما لم يتسلَّح بالصبر والصلاة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (البقرة:١٥٣).

الصبر وجزاؤه :

فإذا صبر الإنسان فإن جزاءه لا يُقْدر قدره ، ولا يُحصى عدُّه . كلُّ جزاء هو معلوم إلا الصبر ، هو غير معلوم ولا محسوب : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (الزمر:١٠). جزاء الصبر أحسن الجزاء كما قال تعالى : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (النحل:٩٦) . ولأن الصوم نصف الصبر كان جزاء الصائمين ما جاء في الحديث القدسي :« كلُّ عمل ابن آدم له ، إلا الصيام فإنه لي وإنا أجزي به »[1] .

والصبر أنواع :

أولاً : الصبر على البلاء :

هناك الصبر على بلاء الله . . . على ما قضى الله على الإنسان من بلاء ، فلا بد له أن يقابل البلاء بالصبر ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ (البقرة:١٥٥-١٥٧).

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري (١٩٠٤) ، ومسلم (١١٥١) ، كلاهما في الصوم ، كما رواه أحمد (٩٧١٤) ، والنسائي في الصوم (٢٢١٦) ، عن أبي هريرة .

يقول سيدنا عمر في التعليق على هذه الآية : (نِعْمَ العدلان ، ونِعْمَت العلاوة)[1].
العدلان هما الصَّلوات والرحمة : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ ، والعلاوة هي الاهتداء : ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ .

فضل الاسترجاع :

﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ : بشَّرهم الله سبحانه وتعالى ، وعلَّمهم أن يقولوا عند المصيبة : إنا لله ، نحن ملك لله يتصرَّف فينا كيف يشاء ، وإنا إليه راجعون نجد عنده حسن المثوبة والجزاء .

إنا لله ، كلُّنا لله ، أموالنا ملك لله ، أولادنا ملك لله ، أنفسنا ملك لله ، فإذا أخذ منَّا ما يملك فلا يجوز لنا أن نَجْزع ولا أن نسخط ، بل نقول : إنا لله وإنا إليه راجعون .

وقد قال النبيُّ ﷺ فيما رَوَته أم سلمة رضي الله عنها :« ما من عبد تصيبه مصيبة ، فيقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهمَّ أجرني في مصيبتي واخلف لي خيرًا منها ، إلا آجره الله في مصيبته ، وأخلف له خيرًا منها »[2] .

استرجاع أم سلمة :

سمعت ذلك أمُّ سلمة من رسول الله ﷺ ، ثم استشهد زوجها أبوسلمة ، وهو من المؤمنين المهاجرين في سبيل الله ، فامتثلت وقالت ما علَّمها النبي ﷺ : « اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيرًا منها » . وقالت في نفسها : ومن يكون خيرًا من أبي سلمة ؟ فكان أن عوَّضها الله خيرًا من أبي سَلَمة وهو رسول الله ﷺ ، الذي جاء يخطبها واعتذرت أولاً ، ثم أقنعها النبي ﷺ ، فصارت من أمهات المؤمنين وزوجات رسول الله ﷺ في الدنيا الآخرة .

---

(١) رواه الحاكم في التفسير (٢/٢٧٠) ، وصححه على شرطهما ، ووافقه الذهبي ، والبيهقي في الجنائز (٤/٦٥) .

(٢) رواه مسلم في الجنائز (٩١٨) ، وأحمد (٢٦٦٣٥) .

OBEIKAN.COM

من مظاهر الجزع والعادات المحرَّمة عند المصائب :

المؤمن يسترجع ، ولا يقابل المصيبة بالجَزَع ولا بالسخط ، بل يقابلها بالصبر والرضى . لا يلطم خدًّا ، ولا يشقُّ جيبًا ، ولا يدعو بدعوى الجاهلية ، ولا يفعل ما يفعل الناس اليوم من إظهار الجزع ، وإعلان الحداد ، وتغيير الصورة ، أو لبس الثوب الأسود كما تفعل النساء في بعض البلاد ، المرأة يموت أبوها أو أخوها أو ابنها فتظل سنة تلبس السواد! هذا محرَّم لأنه إظهار الجزع ، «لا يحلُّ لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تُحِدَّ على ميت فوق ثلاثة ، إلا على زوج فإنها تحدّ عليه أربعة أشهر وعشرًا»[1] . بعض الناس يلبسون رباط العنق الأسود (الكرافتة السوداء) ، وبعضهم يترك شعره لا يقصه ، أو كان غير ملتح فيترك لحيته ، هذه اللحية تصبح بدعة وتصبح حرامًا في هذه الحالة ؛ لأنه من إظهار الجزع . ومن ذلك : تنكيس الأعلام ، القيام حدادا ، كل هذا لا يجوز في الإسلام .

صَبْرُ واسترجاع أم سُليم :

لا بدَّ للناس إذا أصابتهم مصيبة أن يقولوا : «إنا لله وإنا إليه راجعون» ، وأن يدعو بهذا الدعاء : «اللهمّ أجرني في مصيبتي واخلفني خيرا منها» .

كان لأبي طلحة رضي الله عنه وزوجه أم سليم (الرميصاء)[2] : طفلٌ مريض ، وجاء أبو طلحة من الخارج ، فسأل زوجته عن ابنه ، وكان الولد قد مات ، فسجَّته أمه ـ غطته بشيء ـ فقال : كيف حال الصبي؟ قالت : قد هدَأت نفسه ، وأرجو أن يكون قد استراح . وهي تعني أنه استراح بالموت ، وهدأت نفسه فعلاً بالموت ، وظنَّ الرجل أنه قد استراح بالشفاء .

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في الجنائز (١٢٨٠) ، ومسلم في الطلاق (١٤٨٦) ، كما رواه أحمد (٢٦٧٦٥) ، وأبو داود (٢٢٩٩) ، ورواه الترمذي (١١٩٥) ، والنسائي (٣٥٠٠) ، ثلاثتهم في الطلاق ، عن أم حبيبة .

(٢) انظر ما كتبه الشيخ القرضاوي عنها في كتابه : (نساء مؤمنات) صـ٤١ – ٤٨ ، طبعة مكتبة وهبة ، القاهرة .

OBEIKAN.COM

هيَّأت له الطعام ، وتصنَّعت له وتزينت ، كما كانت تتزيَّن له في الليالي السابقة ، فأصاب منها . فلما فرغ قالت له : يا أبا طلحة ألا تعجب من جيراننا ؟ قال : ما بالهم؟ قالت : إنهم استعاروا عارية ، فلما طُلبت منهم غضبوا! وقد مكثت عندهم أيامًا . فقال : ما كان لهم أن يفعلوا ، من أعير عارية فلا بدّ أن تسترد ، وإذا استردّها صاحبها ما له أن يغضب . فقالت له : فإن الله أعارنا ابننا فلانا ثم استردَّه منا ، هل تغضب؟ فاسترجع ، قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، تركتني بعد أن تلطخت؟!

ثم لما ذهب في الصباح إلى رسول الله ﷺ قصَّ عليه القصة وما صنعت زوجته أم سليم ، فقال : «لعلَّ الله أن يبارك لكما في ليلتكما»[1] . قال راوي الحديث : فلقد رأيت من أولاده تسعة كل منهم قد قرأ القرآن .

العاقل يصبر ويُؤْجر :

هكذا شأن المؤمنين . يقابلون بلاء الله سبحانه وتعالى بالصبر والرضا ، ويعلمون أنَّ ما قضاه الله تعالى خيرٌ لهم وأنَّ قضاء الله نافذ صبروا أم لم يصبروا ، كما قال سيدنا علي رضي الله عنه وقد عزَّى رجلاً في ابنه ، فقال : يا فلان إن تحزن فقد استخفت منك الرحم ، وإن تصبر ففي الله خَلَف من ابنك ، إنك إن صبرت جرى عليك القدر وأنت مأجور ، وإن جزعت جرى عليك وأنت مأثوم[2] . يعني القضاء نافذ نافذ ، صبرنا أو جزعنا ، فلنصبر لننال الأجر ولا نجزع .

نِعَم الله في المصيبة عند عمر :

بل إنَّ المؤمن إذا نظر فيما قضاه الله تبارك وتعالى يعلم أنَّ الخير فيه ، كما قال سيدنا عمر رضي الله عنه : ما أُصبت بمصيبةٍ إلا رأيت لله عليَّ فيها ثلاث نعم :

الأولى : أنها لم تكن في ديني .

---

(١) رواه البخاري في الجنائز (١٣٠١) ، ومسلم في الآداب (٢١٤٤) ، عن أنس بن مالك .

(٢) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٣٩/٩) .

OBEIKAN.COM

الثانية : أنها لم تكن أكبر منها .

الثالثة : أنني أرجو ثواب الله تعالى عليها[1] .

أول نعمة في المصيبة : أنها لم تكن في الدين .

إذا سلم الدين القويم من الأذى فكل أذىً فيما سواه سلام

ومصائبُ الدنيا تهون ، ولذلك علمنا أن نقول في الدعاء : «اللهمَّ لا تجعل مصيبتنا في ديننا»[2] . وسيدنا يوسف حينما خُيِّر بين مصيبتين : مصيبة في دينه ومصيبة في دنياه ، فضَّل مصيبة الدنيا على مصيبة الدين ، وقال : ﴿ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ﴾ (يوسف:٣٣).

وثاني نعمة : أنها لم تكن أكبر منها .

فما من مصيبةٍ إلا وعند الله أكبر منها ، كما يقول العرب : حنانَيْك بعض الشر أهون من بعض . وكما يقول الناس : قضاء أخف من قضاء ، ومن نظر إلى بلوى غيره هانت عليه بلواه ، هذا هو الواقع في هذه الحياة .

صبر عروة بن الزبير :

وقد قالوا : إنَّ عروة بن الزبير ـ وكان من المحدِّثين والفقهاء والعبَّاد والزهَّاد ـ أُصيب يومًا ببليتين : ابتلاه الله تبارك وتعالى بإحدى رجليه أصابتها الأكلة فقرَّر الأطباء قطعها ، وقطعت . وفي نفس اليوم جاء خبر أن فرسًا رفست أحد أبنائه فمات . فنظر إلى رجله المقطوعة ورجله السليمة ، وقال : اللهمَّ إن كنتَ ابتليتَ فقد عافيت . ونظر إلى ابنه المقتول وأولاده الآخرين ، وقال : اللهمَّ إن كنت أخذت فقد أعطيت[3].

أكثر الناس ينظرون إلى النعمة المفقودة ولا ينظرون إلى النعم الموجودة ، فإذا أزيلت عنه نعمة نسي أنه عنده أضعاف أضعافها .

---

(١) انظر : إحياء علوم الدين (١٢٩/٤) .

(٢) رواه الترمذي في الدعوات (٣٥٠٢) ، وقال : حديث حسن غريب ، والنسائي في الكبري في عمل اليوم والليلة (١٠١٦٢) ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٢٦٨) ، عن ابن عمر .

(٣) انظر : البداية والنهاية (١٢٠/٩) .

OBEIKAN.COM

كثير من الناس يكبِّرون صغار المصائب ، ويصغِّرون كبار النعم . وليس هذا من شأن المؤمن .

المؤمن يفلسف البلية حينما تنزل به كما فلسفها عمر رضي الله عنه :

أنها لم تكن في ديني .

وأنها لم تكن أكبر منها .

وثالث نعمة : أنني أرجو ثوابَ الله تعالى عليها .

ثوابُ الله في كلِّ ما ينزل بالإنسان ، «من نَصَب أو وَصَب ، أو غمّ أو حزن ، حتى الشوكةُ يشاكها ، يكفِّر الله بها من خطاياه»[1]. فإن لم تكن له خطايا زادت من حسناته . فإذا لم يكن في حاجة إلى حسنات ارتفعت درجاته ، كالنبيين .

ولكن مَن من الناس يحسب أو يتوهَّم أنه لا خطأ له؟ كلنا مُلوَّثون بالخطايا ، فلذلك نحن في حاجة إلى كثير من هذه المصائب والبلايا التي تنزل بنا حتى تكفّر عنا .

حينما نزل قول الله تعالى : ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ (النساء:١٢٣) بكى أبو بكر رضي الله عنه ، وقال : يا رسول الله ، كلُّ سوء نعمله نُجْزى به؟! هذا شديد . فقال : «يا أبا بكر ، ألستَ تمرض؟ ألستَ تحزن؟ أليس يُصيبك الأذى؟ فهذا مما تُجْزى به»[2] . هذا من ضمن الجزاء الذي يجزى به الإنسان على ما عمله من سوء ، فهو تطهير وتكفير . المؤمن يستفيد من البلايا .

وقد ذكروا أنَّ امرأة فتح الموصلي ـ وهو أحد السلف الصَّالحين ـ أصابتها في رجلها عظمة فقطعت ظفرها ، فابتسمت ، وحمدت الله ، فقيل لها : فيك كل هذا

---

(١) يشير إلى الحديث المتفق عليه : رواه البخاري في المرضى (٥٦٤١) ، ومسلم في البر والصلة (٢٥٧٣) ، عن أبي سعيد الخدري .

(٢) رواه أحمد (٧١) ، وقال مخرجوه : حديث صحيح وهذا إسناد ضعيف ، وابن حبان في الجنائز (٢٩١٠) ، وقال الأرناؤوط : إسناده ضعيف .

الوجع وتبتسمين وتضحكين ، فقالت لهم : إنَّ حلاوة ثوابه أنستني مرارة وجعه[1] .
هذا هو شأن الإنسان المؤمن .

الصبر على البلاء . على مُرِّ القضاء ، هذا أول أنواع الصبر .

الصبر عن المعصية :

هناك صبرآخر : الصبر عن المعصية ، وهو أفضل من الصبر الأول ، لأنَّ الصبر الأول أسبابه لا خيرة لك فيه ، البلايا تنزل بك أردتَ أم لم ترد ، ولا بدَّ أن تصبر إن كنت عاقلاً ، فمن لم يصبر اليوم سيصبر غدًا ، ولذلك يقولون : العاقل يفعل في أول يوم ما يفعله الجاهل بعد ثلاثة أيام . قالوا : من لم يصبر صبرَ العقلاء سَلا سَلْوَ البهائم . لا بد للإنسان أن يصبر إن كان عاقلاً .

ولكن أهم من هذا النوع من الصبر : الصبر عن معصية الله .

صبر يوسف عليه السلام عن المعصية مع توفر أسبابها :

إذا لاحت لك أسباب المعصية ، تهيَّأت لك ظروفها ، فألجم نفسك بلجام التقوى واصبر عنها ، وقل ما قال يوسف عليه السلام حينما ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (يوسف:٢٣) .

حينما لم ينفع معه سلاح الإغراء واستخدمت سلاح التهديد أمام النسوة ـ حينما قالت : ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ (يوسف:٣٢) ـ استجار بربه ، و ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ (يوسف:٣٣).

هذا الصبر عن المعصية .

صبر أيوب ويعقوب على البلاء :

الصبر الأول على البلاء : صبر أيوب الذي قال الله فيه :﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ (ص:٤٤) ، وصبر يعقوب الذي صبر على فراق يوسف ابنه

---

(١) انظر : مدارج السالكين (١٦٧/٢) .

OBEIKAN.COM

أولاً وبنيامين ثانيًا ، وقال : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ (يوسف:١٨) ، ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (يوسف:٨٣) .

الصبر الثاني : صبر يوسف عند المعصية .

الصبر على طاعة الله :

الصبر الثالث : هو الصبر على طاعة الله عزَّ وجلَّ . على ما أمر به الله سبحانه وتعالى . أن تصبر على أداء فرائض الله عزَّ وجلَّ . أن تصبر على عبادة الله سبحانه وتعالى مهما كانت شاقَّة عليك . أن تقاوم الهوى وتقاوم الكسل ولا تستجيب للشيطان ووسوسته ، فتصلِّي الصلوات في أوقاتها ، وتؤدي الزكاة وإن وسوس لك شيطانك أوسولت لك نفسك : ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة:٢٦٨) .

كل العبادات والطاعات تفعلها ، وتصبر عليها كما قال تعالى : ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ (مريم:٦٥) ، ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (طه:١٣٢) . لا بد من الصبر .

وهذا الصبر أعلى من الصبر الذي قبله ، لأنه هو الذي يراد لذاته .

صبر إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام :

اصبر على طاعة الله وتنفيذ أمر الله ، لو كان ذلك يتعلق بذهاب مالك وإزهاق روحك ، كما فعل إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام حينما عرض عليه أبوه ، وقد بلغ معه السَّعيَ وأصبح يُرجى منه : ﴿ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾(الصافات:١٠٢) فلم يتردَّد الفتى ولم يتلعثم لسانه ، ولكنه قال : ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (الصافات:١٠٢) .

صبرالولد ، وصبر الوالد . أسلم الوالدُ ولدَه ، وأسلم الولدُ عنقَه : ﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (الصافات:١٠٣-١٠٥) . اصبر على طاعة الله .

الصبر على الدعوة إلى الله :

وهناك صبر أعلى من هذا كله وهو :

الصبر على دعوة الناس إلى الله . . . على مشاقِّ الدعوة إلى الله ، وهو صبر أُولي العزم من الرسل الذين صبروا على طول الطريق ، وعلى أذى الخلق ، وعلى إعراض الناس ، وعلى ما يُصَبُّ عليهم من الأذى والعذاب .

هذا هو الذي قال الله تعالى فيه : ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ (العنكبوت:٢). ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ ﴾ (البقرة:٢١٤) البأساء في الأموال ، الفقر والبؤس ، والضرَّاء في الأبدان ، جراحات وتعذيب وآلام . والزلزلة في النفوس :﴿ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة:٢١٤)، استبطأوا النصر من كثرة ما أصابهم : ﴿ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (البقرة:٢١٤) .

صبر نوح عليه السلام :

هذا الصبر : صبر الأنبياء ، صبر نوح عليه السلام الذي ظلَّ ألف سنة إلا خمسين عاما يدعو قومه ليلاً ونهارًا ، وسرًّا وجهارًا ، فلم يزدهم دعاؤه إلا فرارًا .

ألف سنة إلا خمسين عاما أكثر من ثلاثين جيلا! يذهب جيل ويأتي جيل وهو صابر على الدعوة لم ييأس يدعوهم بالليل والنهار والسرِّ والجَهَار ، ويُرغِّبهم بأمور الدنيا وأمور الآخرة ، حتى دعا الله سبحانه وتعالى في آخر أمره ألا يَذَر على الأرض كفَّارًا ، وأن يطهِّر الأرض من شرِّ هؤلاء الناس .

هذا هو صبر الأنبياء : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ (الأحقاف:٣٥) .

طريق الدعوة يلزمه الصبر :

أُمِر النبيُّ ﷺ بالصبر في تسعة عشر موضعًا من القرآن الكريم منذ السورة الأولى في القرآن كالمدثِّر : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣

وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴾ (المدثر:١-٧) وكذلك سورة المزمِّل : ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ (المزمل:١٠) ، وفي سورة المعارج : ﴿ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴾ (المعارج:٥).

أمر عليه الصلاة والسلام ، بالصبر في سور شتَّى : ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ (الطور:٤٨) ، ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ (الروم:٦٠) وذلك أن طريق الدعوة طريق طويل ، وأعداء الدعوة كثيرون ، والمؤمن بين خمس شدائد : مؤمن يحسده ، ومنافق يبغضه ، وكافر يقاتله ، وشيطان يضله ، ونفس تنازعه .

ولهذا كان أحوج ما يكون إلى الصبر ، في هذه المعركة المتعددة الجوانب ، المختلفة الأبعاد .

لا بد مع الصبر من المصابرة :

بل لا بدَّ مع الصبر من المُصَابرة ، الله تعالى يقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران:٢٠٠) . والمصابرة : أن تُطاوِل غيرك في الصبر . أن تُغالب خصومك في الصبر ، فهم يصبرون على باطلهم فلا بدَّ أن تصبر أنت على حقِّك .

المؤمنون أولى بالصبر من غيرهم :

انظروا : ماذا قال المشركون؟ ﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴾ (ص:٦) اصبروا على مناة واللات والعزَّى وهُبل ، فإنَّ محمدًا يريد أن يُزحزحنا عن عبادتها . وقالوا : ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ (الفرقان:٤٢) ، أي : استمسكنا بها ، وعضضنا عليها بالنواجذ .

الكفار يصبرون على باطلهم ، فلا بدَّ أن يكون صبر أهل الحق أقوى من صبرهم ، وهذا معنى المصابرة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران:٢٠٠) .

OBEIKAN.COM

حاجتنا إلى الصبر :

ما أحوجنا نحن في هذا العالم المعاصر ، وفي دنيانا هذه إلى الصبر ، حيث تُصَبُّ علينا المصائب من كلِّ جانب ، وأصبح الإسلام يناوَشُ من هنا ومن هناك ، وأصبح لحم المسلمين مُسْتَسَاغًا ، وأصبحت أعراض المسلمين كلأً مباحًا ، تهدم مساجدهم ، تُغْتصب نساؤهم ، تُسفك دماؤهم ، تُنتهك حُرُماتهم ، ولا يبكي لهم أحد ، ولا يرقُّ لهم أحد ، ولا يغضب لهم أحد .

أين الألف مليون أو تزيد من المسلمين؟ إننا وإن كنا بحاجة إلى الصبر ، فإنَّ الصبر على الظلم لا يجوز ، الله تعالى ذمَّ قومًا حينما قال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ (النساء:٩٧) .

بعض الصبر لايجوز :

أن تصبر على مسلم أمامك يُقتل أو يُظلم أو يُضرب وأنت ساكت ، هذا صبر غير مشروع ، « لا تقفنَّ عند رجل يقتل مظلومًا ، فإنَّ اللعنة تنزل على من حضره إذا لم يدفعوا عنه »[1] .

الصبر المصحوب بالأمل :

ولكن علينا نحن أن نصبر صبر المؤمنين ، الصبر الذي يصحبه أمل . سيدنا يعقوب حينما فقد ولديه واحدًا بعد الآخر قال : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (يوسف:٨٣) . وقال لبنيه : ﴿ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (يوسف:٨٧) .

---

(١) رواه الطبراني (٢٦٠/١١) ، والبيهقي في الشعب باب في الأمر بالمعروف (٧٥٨٠) ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤٤٣/٦) : رواه الطبراني وفيه أسد بن عطاء ، قال الأزدي : مجهول ومندل وثقه أبو حاتم وغيره وضعفه أحمد وغيره وبقية رجاله ثقات ، وحسَّن إسناده البوصيري في إتحاف المهرة (٢٧١/٤) ، عن ابن عباس .

OBEIKAN.COM

مهما نزلت بنا المصائب فلن نتخلى عن الإسلام ، لن نتخلى عن دعوة الإسلام ولا عن رسالة الإسلام .

إنَّ بعد الليل فجرًا :

ندعو إخواننا في فلسطين ، وإخواننا في البوسنة والهرسك ، وإخواننا في جامو وكشمير ، وإخواننا في كل أرض يضطهد فيها الإسلام : أن يصبروا ويصابروا ، وأن يوقنوا أن المستقبل لهم إن شاء الله . إن بعد الليل فجرًا ، وإن مع العسر يسرًا ، ودوام الحال من المحال ، وسيأتي الفرج إن شاء الله .

وَلَرُبَّ نازلةٍ يضيقُ بـهـا الفـتى ذَرْعًا وعنـد الله منـها المَخْـرَجُ
ضاقت ولمَّا استحكمت حَلَقَاتُهـا فُرِجَت وكنتُ أظنُّها لا تُفْـرَجُ[1]

ومصداق ذلك في كتاب الله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ (يوسف: ١١٠) .

المستقبل للإسلام :

إنَّ الغد لهذا الدين ، والبشائر عندنا كثيرة . ولكن علينا أن نصبر على مشاقِّ الدعوة إلى الله ، وأن نحمل رسالة الهداية للبشرية ، نحملها أولاً لأنفسنا وأهلينا ومن حولنا ، حتى يعود الإسلام حاكمًا للحياة وضابطًا لمسيرة المجتمع كما يضبط مسيرة الأفراد ، ثم بعد ذلك نُبَلِّغ رسالة الله إلى العالمين : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (الفرقان: ١) ، ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء: ١٠٧).

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم ، وادعوه يستجب لكم .

---

(١) من شعر الإمام الشافعي .

الخطبة الثانية :

أما بعد ، فيا أيها الإخوة المسلمون :

الصبر على الفتن وعن المحرَّمات :

نحن في عصر نفتتن فيه في كل ناحية ، وعلينا أن نصبر على الفتن ، ونصبر عن المُحرَّمات ، ونفطم أنفسنا عمَّا حرَّم الله عزَّ وجلَّ ، وهذا من الصبر الواجب والمطلوب .

علينا أن نصبر عن كلِّ ما حرَّم الله عزَّ وجلَّ وخصوصًا المعاصي التي اشتهرت في الناس ، مثل معاصي نظر الأعين إلى ما حرَّم الله ، ومعاصي السماع إلى ما يغضب الله عزَّ وجلَّ ، ومعاصي اللسان : الغيبة ، النميمة ، الكذب ، السخرية ، الاستهزاء بالناس .

المعاصي التي اشتهرت بين الناس ينبغي أن نصون أنفسنا عنها ، وسلاحنا في ذلك هو الصبر .

ومن هذه المعاصي ما نراه ونسمعه في التلفزيونات والإذاعات والصحف . وقد أحسن مجلس الوزراء في قطر صُنعًا حينما اتَّخذ قرارًا شجاعًا ، فمنع بهذا القرار هذه الأطباق التي تسمَّى (الدش) ، والتي يجلب الناس إليها من كل محطات العالم وقنواته السمين والغث ، والجيد والرديء ، والطيب والخبيث ، وكثير منها خبيث وكثيرٌ منها محرَّم .

أهمية الرقابة على القنوات الفضائية :

هذا قرارٌ ينبغي أن يُحمَدَ ويشكر . ويبقى شيءٌ مكمِّل له ، وهو ما أعلن أن هناك رقابة على القنوات التي تبثّ عن طريق (كيوتل) أو (الكيبل) أو هذه الأشياء ، نطالب أن تكون هذه الرقابة رقابة حقيقية فعلية ، وقد عرفت من مصادر ثقة أن هذه الرقابة فعلاً رقابة حقيقية وليس مجرَّد كلام ، وهذا هو الواجب .

لا بد من وجود هذه الرقابة وخصوصًا على ما يبثُّ بالليل ، وخصوصًا في آخر الأسبوع : يومي السبت والأحد ـ ما يسمونه هناك (week end) ـ فمعظم الفضائح والمصائب في تلك الليالي .

OBEIKAN.COM

الرقابة على النفس والأهل :

ينبغي أن نُشَدِّد الرقابة على هذه الأشياء . وينبغي أيضًا على كلٍّ منا أن يكون رقيبًا على نفسه وأهله . وهناك رقابة الإنسان المستمدة من رقابة الله عزَّ وجلَّ ، الذي يسمع ويرى ، و ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ﴾ (البقرة:٢٣٥) .

كل شيء يراه الله عزَّ وجلَّ ويسمعه : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (المجادلة:٧) .

اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك .

اللهم اغفر لنا ما مضى وأصلح لنا ما بقي .

اللهم اجعل يومنا خيرًا من أمسنا ، واجعل غدنا خيرًا من يومنا ، وأحسن عاقبتنا في الأمور كلها ، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة .

اللهم اجعل كلمة الإسلام هي العليا ، واجعل كلمة أعداء الإسلام هي السفلى ، اللهم انصر إخوتنا المجاهدين في كل مكان ، وخذ بأيدي إخواننا المضطهدين في كل مكان ، اللهم افكك بقوتك أسرهم ، واجبر برحمتك كسرهم ، وتولَّ بعنايتك أمرهم .

﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الحشر:١٠) .

﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (آل عمران:١٤٧).

* * *

OBEIKAN.COM

(١٧)
المراقبة

الخطبة الأولى :

أما بعد ، فيا أيها الإخوة المسلمون :

تحدَّثنا عن العبادات القلبية . عن طاعات القلوب . عن مقامات الدين التي لا يكون الدين دينًا إلا بها .

تحدَّثنا عن الورع ، عن الزهد ، عن التوكل ، عن الشكر ، عن الصبر .

ونتحدَّث اليوم عن مقام آخر من مقامات الدين ، ومنازل السالكين إلى الله تبارك وتعالى . ذلك المقام ، وهذا المنزل ، وتلك العبادة ، هي عبادة : المراقبة والمحاسبة . المراقبة للرب ، والمحاسبة للنفس .

معنى المراقبة :

أن يحيا الإنسان بقلبٍ يَقظ ، لا بقلب غافل ، فإنَّ شرًّما يُصاب به الناس هو : الغفلة ، الغفلة عن أنفسهم ، الغفلة عن ربِّهم ، الغفلة عن مصيرهم ، وأن يعيشوا لدنياهم ولا يتفكروا في آخرتهم ، وأن لا يذكروا الجنة ولا النار ، أن لا يذكروا إلا حظوظ أنفسهم غافلين عن حقِّ ربهم عزَّ وجلَّ .

الغفلة هي آفة الآفات :

وقد جعل الله أصحابها حطب جهنم وَوَقود النار وجعلهم أضلَّ من الأنعام سبيلاً : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ (الأعراف:١٧٩).

OBEIKAN.COM

الذي جعلهم أضل من الأنعام : الغفلة ، إنهم يعيشون في غفلة وفي نسيان ، ذاهلين عن حقيقة أنفسهم ومهمتهم ورسالتهم في هذه الحياة ، فعطَّلوا الأجهزة التي منحهم الله إيَّاها ليطلوا بها على الوجود من حولهم ويرتحلوا من الكون إلى المكوِّن ، ومن الصنعة إلى الصانع ، ومن الأثر إلى المؤثِّر .

لهم قلوبٌ ولكنهم لا يفقهون بها ، ولهم أعينٌ ولكنهم لا يبصرون بها ، ولهم آذان ولكنهم لا يسمعون بها ، خربوا هذه الأجهزة لأنها لا تستخدم لما خلقها الله له ، لم ينظروا نظر المعتبر ، لم يسمعوا سماع المهتدي ، لم يتفكَّروا تفكُّر المؤمن : ﴿ وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ (يونس:١٠١).

ما أنت أيها الإنسان ؟ :

المراقبة : أن يرزق الإنسان اليقظة ، الصحوة . هذه التي تفتح عين قلبه على الحقيقة لينظر : ماهو؟ ما أنت أيها الإنسان؟ أيها الإنسان أنت لست إلهًا في هذا الكون ، أيها الإنسان لقد خلقت من عدم وستنتهي إلى عدم ، أنت تراب يمشي على التراب وسينتهي إلى التراب : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ (طه:٥٥) .

أيها المُحْدَثُ الفاني ، أيها الإنسان الضعيف ، انظر إلى نفسك وانظر إلى ربك ، راقب نفسك ، اعلم أنَّ الله تبارك وتعالى مطَّلع على كلِّ ما تعمله . على كلِّ قول تقوله . على كلِّ لفظ يصدر منك . على كلِّ خطوة تخطوها ، بل على كلِّ خطرة تخطر ببالك .

لا تخفى عليه خافية ولا يغيب عنه سرٌّ ولا علانية :

حركاتك وسكناتك ، غَدَواتك ورَوْحاتك ، كلُّها لا تغيب عن الله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ (ق:١٦) . ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ (الزخرف:٨٠) يسجِّلون ، قلم الإحصاء والتسجيل الإلهي يُسجِّل ويحصي .

وهذا الذي يُسجِّل ويُحصى لا يضيع ، لا يهدر ، لا يُلقى في سلة المهملات ، لا تأكله الحشرات ، سيبقى ما سُجِّل لك أو عليك من مَلَك الحسنات أو مَلَك السيئات في سِجِلّ محفوظ وكتاب ستقرأه ، ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴾ (الإسراء:١٣).

اقرأ كتابك :

سيقرأ الكتاب المتعلِّم والأمي ، سيجد عمله بين يديه : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ (آل عمران:٣٠) ، ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ (الزلزلة:٦) كان بعض المفسرين قديمًا يقولون : ليروا جزاء أعمالهم لأنَّ العمل فني وانتهى ، والعمل عَرَض ، والعرض لا يبقى زمانين!

العمل لا يفنى بمجرَّد وقوعه :

وأصبحنا اليوم نعرف مما علم الله الإنسان ما لم يعلم أن العمل لا يفنى بمجرد وقوعه ، كل شيء موجود ، تستطيع أن تسمع صوتك وأن ترى نفسك في آلات اخترعها الإنسان ، ترى ما عملت في شريط يسجِّل صوتك ويسجِّل عملك ، فترى نفسك بعد أن انتهى العمل .

بل يقولون : إن كل أقوال الإنسان وحركاته ، موجودة لم تذهب ، ولم تفن ، وربما يمكن للانسان بعد مدة من الزمان من التقاطها ، وتخزينها . ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (النحل:٨).

وإذا كان الناس قد اخترعوا أدوات تُسجِّل أقوالهم وأعمالهم وتبقيها حتى يروا أنفسهم بعد أن ذهب العمل وانتهى زمانه ، فكيف يكون بعيدًا على الله تبارك وتعالى أن نجد أعمالنا يوم القيامة ونشاهدها بأنفسنا . بأعيننا ولا نستطيع أن ننكر؟

ولو أنكرت الألسنة ستتحدَّث الجوارح : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (النور:٢٤).

OBEIKAN.COM

فإذا كذبت الألسنة ختم عليها : ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ (يس:٦٥) . ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (فصلت:١٩-٢١).

نطق الجوارح وشهادتها يوم القيامة :

هل يعجز الذي أنطق اللسان أن ينطق الجلْد؟ وما اللسان؟ عضلة من العضلات وقطعة من اللحم .

الذي أنطق اللسان يمكن أن ينطق الجلود : ﴿ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (فصلت:٢١،٢٢) الكافر يظنُّ أن الله لا يعلم كثيراً مما يعمل .

علم الله المحيط بكل شيء :

أما المسلم المؤمن فإنه يعلم أنَّ الله محيطٌ به ، وأنَّ علمه محيط به ، لا يخرج منه شيئًا ﴿ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ (طه:٧) ، مُطَّلع على مكنون الضمائر وعلى خفيِّ السرائر ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ﴾ (البقرة:٢٣٥)، يعلم السر من الكلام كما قال تعالى : ﴿ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ (الملك:١٣) .

كان المشركون يقول بعضهم لبعض : تكلَّموا في صوت خافت حتى لا يسمعكم إله محمد ، فكلَّما تكلَّمنا أعلم إله محمد محمدًا بما نتكلَّم به ، لا تجهروا بقولكم وأسرُّوا به . فنزل قول الله تعالى : ﴿ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ (الملك:١٣) ، إنه يعلم ما في الصدر ، ما يكنُّه

OBEIKAN.COM

القلب ، فكيف لا يعلم ما يظهر اللسان وإن كان بصوت خافت؟! ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝١٣ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (الملك:١٣،١٤).

المؤمن يعلم أنَّ الله سبحانه وتعالى محيطٌ به علما وخبرًا ، يعرف ويعلم ويطَّلع على كلِّ ما يقوم به ، بالليل أو النهار ، في السرِّ أو الجهار ، لا تخفى عليه خافية ولا يغيب عنه سرٌّ ولا علانية .

المؤمن الحق يراقب الله :

ولهذا فهو يراقب الله قبل أن يراقب الناس . قال بعض الصالحين : المؤمن يرقب الله قبل أن يرقب خلقه ، أما المنافق فينظر يَمْنَة ويَسْرَة ، فإذا لم يجد أحدًا دخل مدخل السوء[1] . يراقب الناس ولا يراقب رب الناس .

الناس يقولون : احذروا الحيطان لها آذان! يخشون أن يسمعهم أحدٌ من وراء الحيطان ، ولكن هناك قبل الحيطان وما وراء الحيطان مَنْ يسمع ويرى ، من يسمع دبيب النملة على الصَّفا . على الصخرة الملساء !

ولهذا ينبغي للمؤمن أن يُراقب هذا الرب .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾

(المجادلة:٧).

﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٣ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (الحديد:٣،٤).

حينما ذهبت كان الله معك ، لو أغلقت على نفسك ألف باب وباب ، لو اختفيت عن أعين الناس ، لو استطعت أن تموِّه على الخلق وأن تستتر عن أعينهم ،

---

(١) انظر : الإحياء (٣٩٨/٤) . عن فرقد السنجي .

فلن تستطيع أن تستتر عن أعين الله عزَّ وجلَّ . عينُ الله لا تغفل ولا تنام ، عينُ الله تُبصر وترى .

قربُ الربِّ من العبد :

فهذا ما ينبغي للإنسان المؤمن : مراقبة الله عزَّ وجلَّ ، أن يعلم الإنسان بقرب ربه منه ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ (ق:١٦) بمعيَّته له ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ (الحديد:٤) ، بأن كل ما يعمله محصى له ، قد ينساه الإنسان بعد فترة وآفة الإنسان النسيان ، ولكنه غير منسيٍّ عند الله ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (المجادلة:٦) ، إذا نسيته أنت ، فإن ربي لا يضل ولا ينسى ، محصيٌّ عند الله ، مسجَّل في كتابك ، ستراه يوم القيامة أمام عينيك ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (الكهف:٤٩) .

المؤمن يراقب ربه في كلِّ كبيرة وصغيرة ، في كلِّ حركة وسكنة ، لا يغفل عن ربه طرفة عين ، لأن الله سبحانه وتعالى لا يغفل عنه .

المراقبة تصنع القلب الحي :

إذا نظرت إلى شيء ، فاعلم أنَّ نظر الله إلى ما تنظر إليه أسبق من نظرك .

لا بد أن تستحضر في نفسك هذه المراقبة . هذه المراقبة هي التي تصنع القلب الحي ، تصنع ما يسمُّونه اليوم (الضمير) . الضمير هو ذلك القلب الحسَّاس المرهف الحس ، الذي يرعى الله تبارك وتعالى ويراقبه في كل أمر من الأمور .

قلّه الضمائر المؤمنة الحية :

ما الذي ينقص الدنيا اليوم؟ ينقصها هذه الضمائر المؤمنة ، هذه القلوب الحية .

ما الذي جرَّ الفساد على دنيا المسلمين؟ أنه لا توجد هذه القلوب . وجدت قلوب غافلة عن الله وعن المصير ، وعن الحساب والجزاء ، وعن الجنة والنار .

ولهذا تمرَّغوا في أوحال الشهوات ، وفي نجاسات الذنوب ، ومشوا وراء الدنيا لا يبالون أكلوا من حلال أم من حرام . استحلَّ الناس الحرام وأصبح المعروف منكرًا والمنكر معروفًا ، وسار الناس في ركاب الظلمة والطاغين ، لأن الناس فقدوا رقابة الله عزَّ وجلَّ .

أهمية الرقابة الذاتية الناشئة من الإيمان واليقين :

هذه الرقابة الداخلية هي أهم من أيِّ رقابة إدارية ، أو رقابة مالية ، أو رقابة قانونية ، لأن الإنسان يجعل من نفسه رقيبًا على نفسه ، رقابة ذاتية ، والإنسان في حقيقته إنما يقاد من داخله لا من خارجه ، من باطنه لا من ظاهره ، من قلبه لا من جوارحه ، من عقله لا من أذنه .

هذه القيادة إنما تأتي من هذه الرقابة الذاتية الناشئة من الإيمان واليقين .

والقوانين وحدها لا تستطيع أن تصنع إنسانًا صالحًا ، ولا مجتمعًا صالحًا . كم من أناس تحايلوا على القوانين ، بل إنَّ بعض من يضعون القوانين هم أول مَن يخرقونها .

وماذا يصنع القانون فيمن يملك القوة ، ويستطيع أن يسخِّر القانون لمصلحته؟!

هناك من هو أعلى من القانون : القانون من داخل النفس ، القانون الذي يجعل الإنسان يترك كلَّ شيء وهو قادر على أن يفعله ، يترك الحرام خشية الله ، بل يترك الشبهات استبراءً لدينه وعرضه ، بل يترك المكروهات ، بل يترك بعض المباحات حتى لا يقع فيما هو شرٌّ منها «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين ، حتى يدع ما لا بأس به حذرا لما به بأس»[1] كما روى الترمذي في حديثه .

الرقابة الذاتية أهم من القوانين :

هذه الرقابة أهم من هذه القوانين التي يصنعها الناس .

ما لم يصنع الإنسان المؤمن الذي يخشى الله تبارك وتعالى ويراقبه ، يمكن أن تُستباح المُحرَّمات وأن تنهب الأموال ، وأن تعطل المصالح ، وأن تؤكل الحقوق ،

---

(١) سبق تخريجه صـ١٩٥ .

OBEIKAN.COM

وأن تنهب أموال الناس بالباطل ، ما دام الإنسان قادرا على هذا . قديما قالوا : القادر فاجر ، وقال في ذلك أبو الطيب المتنبي :

والظلمُ من شِيَمِ النفوس فإنْ تَجِدْ ذا عفَّـــةٍ فلعلَّـــةٍ لا يظلـــم

الإنسانُ ظلومٌ جهولٌ إذا تُرك وحده من غير شيء يُلجمه ويُلزمه ويزجره .

فما الذي يجعل الإنسان يترك الظلم ولا يتعدَّى على غيره؟ لا بد من علة كما قال المتنبي ، وأعظم العلل التي تفطم النفس عن شهواتها وتلجم الإنسان بهذا اللجام الذي يمنعه عن كل شر هو : مراقبة الله تبارك وتعالى وتقواه . هذا أعظم من كل قوانين يفكر فيها الناس .

إن كان أمير المؤمنين لا يرانا فإنَّ ربَّ أمير المؤمنين يرانا :

يذكر الناس تلك القصة المعروفة عندما مرَّ أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه على بيت من البيوت وهو يتعَّسس بالليل ، يتحسَّس أمور الرعية ويتعرَّف شؤونها ، فوجد تلك البنت التي تقول لأمها : لا تخلطي اللبن بالماء يا أمَّاه ، فقد نهى أمير المؤمنين عن خلط اللبن بالماء . فقالت لها : يا ابنتي وأين نحن من أمير المؤمنين؟ أمير المؤمنين لن يرانا حينما نخلط اللبن بالماء . فقالت لها : يا أماه ، ولكن إذا كان أمير المؤمنين لا يرانا فإنَّ ربَّ أمير المؤمنين يرانا[1] .

هذه الكلمة من الفتاة الصغيرة هي التي تُعبِّر عن هذا القانون العظيم النابع من داخل الأنفس ، من داخل الضمائر ، من داخل القلوب المؤمنة .

إن كان أمير المؤمنين لا يرانا فإنَّ ربَّ أمير المؤمنين يرانا .

مثالٌ آخر للمراقبة :

خرج عبد الله بن عمر رضي الله عنهما من المدينة يومًا إلى البرِّ ، ثم جاء وقت الغداء ، فانحدر عليهم راع من الجبل ، فدعاه ابن عمر إلى أن يأكل معهم ، فقال : إني في ضيافة ربي فأنا صائمٌ هذا اليوم ، قال له ابن عمر : بعنا شاةً من غنمك ونعطيك ثمنها فنجتزرها ـ نذبحها ـ وتجتزئ قطعة من اللحم تفطر عليها ، فقال : إني

---

(١) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٥٢/٧٠) .

OBEIKAN.COM

مملوك ، وهذه الغنم ليست لي ، هي لسيدي . فأراد ابن عمر أن يختبره ، فقال له : قل لسيدك : أخذ الذئب واحدة منها ، فقال : يا هذا ـ وهو لا يعرف أنه ابن عمر ـ فأين الله؟! يعني : إذا كذبت على سيدي الأصغر ، فهل أستطيع أن أكذب على سيدي الأكبر؟

فأين الله ؟

فأعجبت الكلمة ابن عمر وبكى ، ثم سأل عن سيِّده مَنْ هو؟ فلمَّا رَجَع إلى المدينة اشترى الغلام ، واشترى الغنم من سيِّد هذا الرجل ، وأعتقه وَوَهب له هذه الغنم ، وقال له : هذه الكلمة أعتقتك في الدنيا فأرجو أن تُعتقك في الآخرة[1]

ما يحتاجه الناس هو هذه الكلمة : أين الله؟ أين الله؟

وصايا للمسلم في المراقبة :

على الإنسان قبل أن يُقدم على عمل أن يُراقب الله تعالى فيه . قبل العمل يراقب الله ، وعند العمل يراقب الله ، وبعد العمل يراقب الله .

قبل العمل ينظر فيما يُقدم عليه : هذا العمل طاعة أم معصية؟ خيرٌ أم شر؟ حلال أم حرام؟ فإن كان معصية ألجم نفسه عن هذا الأمر وابتعد عنه ، ابتغاءَ رضوان الله عزَّ وجلَّ وخوفًا من عقوبته سبحانه .

بل إنه إذا ارتقى لا يكتفي بالبعد عن الحرام ، بل يعزم على اجتناب الشبهات ، «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»[2] .

فإن كان مباحًا فله فيه سَعَة ، ولكنه أيضًا لا يتوسَّع في المباح ، لا يُعطي نفسه كل ما تريد ، فالنفس إذا تركتها هي وما تريد فإنها لا تقف عند حدّ ، يحتاج إلى أن يُروِّض نفسه الحين بعد الحين ، يجاهدها المرَّة بعد المرة ، يمنعها من بعض ما تشتهي ، فالنفس زاهدةٌ إذا زهَّدتها ، طامعةٌ إذا أطمعتها ، وقد قال الشاعر :

والنفسُ راغبةٌ إذا رغبتها وإذا تُرد إلى قليل تقنع!

---

(١) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٣١/٣١) .

(٢) سبق تخريجه صـ١٩٥ .

وإذا تركتها فإنها لا تشبع بكثير ولا تقنع بقليل ، كجهنَّم تقول لها : هل امتلأت . تقول هل من مزيد؟!

لا بد للإنسان ـ حتى في الحلال ـ أن يقف مع نفسه بعض الوقفات ، وليس كل حلال يسترسل معه . قد يكون الشيء حلال ولا يعنيك ، فلماذا تعني نفسك بهذا الأمر ؟ «من حُسْن إسلام المرء تركُه ما لا يعنيه»[1]. لا تُدخل نفسك فيما لا يعنيك ، حتى لا يُصيبك ما لا يُرضيك .

وقفة مع النفس قبل العمل :

يجب على الإنسان أن يقف مع نفسه في كلِّ أمر يريده : إن كان رُشدًا أمضاه ، وإن كان غيًّا اجْتنبه ، وإن كان بين بين ، أخذ بالأحوط ، وابتعد عن الريبة .

هذا هو شأنُ الإنسان الذي يراقب ربَّه عزَّ جل . لا يهجم على الأمور هجمة من لا تهمُّه العواقب ، فالأمرُ ليس هيِّنًا ، الأمرُ أمرُ جنَّة أو نار .

فلا بدَّ للإنسان أن يضع النار نصْب عينيه ، وأن يضع الجنة نصْب عينيه .

إنك إذا خسرت ، خسرت كثيرًا ، خسرت الجنة . وإذا هلكت هلكت طويلاً ، أرديت نفسك إلى النار ، وبئس القرار .

هذه المراقبة ـ أيها الإخوة المسلمون ـ مطلوبةٌ من الإنسان دائمًا .

فعلى الإنسان أن يستحضر أنَّ الله سبحانه وتعالى معه ، وأنَّ الله سبحانه وتعالى مُطَّلع عليه ، وأنَّ الله لم يتركه سُدًى بل وكَّل به ملائكةً حَفَظة كاتبين . ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (الانفطار: ١٠-١٢) .

فينبغي للإنسان أن يستحضر هذا المعنى ، وأن يُراقب الله تعالى قبل العمل ، يسأل نفسه : ما هذا العمل ؟ ولماذا تعمله؟ أأَمرٌ أمرك الله تعالى به؟ أم هو هوىً من أهواء النفس ؟

---

(١) رواه الترمذي في الزهد (٢٣١٧) ، وقال : غريب ، وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٦) ، وصححه الألباني في الجامع الصغير (١٠٨٥٤) ، وحسنه النووي في الأربعين ، عن أبي هريرة .

OBEIKAN.COM

ثلاثة أسئلة يسأل عنها الإنسان نفسه عند كل عمل :

ثم هناك مراقبة عند العمل . ولذلك يقول رجال التربية والسُّلوك : إنَّ هناك ثلاثة أسئلة يسأل عنها الإنسان نفسه عند كلِّ عمل : لماذ ؟ وكيف ؟ ولمن ؟

لماذا تُقْدِم على هذا العمل ؟

هل أمر الله به ، أو أذن فيه ؟

وإذا كان عملاً صالحًا ، إذا كان طاعةً من الطاعات . . . عبادةً من العبادات ، فلا بدَّ أن تسأل نفسك : كيف ؟

كيف يتمّ هذا العمل ؟

لا بدَّ أن يتم على المنهج الشرعي ، لا بدَّ أن يوافق السنَّة ، لا بد أن تلتزم فيه بحدود الله عزَّ وجلَّ ، فلا تُحدث ، ولا تَبتدع ، ولا تغش ، ولا تخون .

ثم بعد ذلك تأتي الإجابة عن السؤال الآخر : لماذا؟ أو لمن؟

لمن هذا العمل الذي تعمله ؟

أهو لمراءاة الناس؟ ألتكتسب الشهرة عند الخلق؟ أليحمدك الناس ويقولوا : فلان كذا وكذا؟ إذن قد ضعت وضيَّعت وهَلَكت وأهلكت .

إذا كان قصدك من عملك أن يحمَدَك الناس ويتحدَّثوا عنك ، ضاع هذا العمل ، وإن كان صورته صورة العمل الصالح . قد يكون صلاة ، وقد يكون زكاة وصدقة ، وقد يكون حجًّا وعمرة ، وقد يكون إنفاقًا ، وقد يكون جهادًا ، وقد يكون علمًا وتعليمًا ، وقد يكون ما شئت من ظواهر الطاعات والقُربات .

ما لم يكن عملك خالصًا للهِ عزَّ وجلَّ ، فإنَّ الله لا يقبله . إن الله لا يقبل من أشرك به غيره . إذا أشركتَ الخلقَ في عملك ، فاذهب ، فخذ أجرك منه ، فإنه لا يقبل العمل إلا إذا كان خالصًا لوجهه : ﴿ **فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا** ﴾ (الكهف:١١٠) .

لذا قال أحد العارفين : إنَّ الله لا يقبل القلب المشترك ولا العمل المشترك . العمل المشترك لا يقبله ، والقلب المشترك لا يقبل عليه .

OBEIKAN.COM

يريد أن يكون قلبك لله وحده ، وعملك لله وحده ، ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (الأنعام:١٦٢،١٦٣)

اعبد الله كأنك تراه :

ينبغي للمسلم إذا أراد مرضاةَ ربِّه أن يراقب الله تعالى في كلِّ أعماله . إذا صلَّى ، إذا قرأ القرآن ، إذا قام بعملٍ ما ، عليه أن يُراعيَ أنَّ الله سبحانه وتعالى يراه ، كما سُئِلَ النبيُّ ﷺ في حديث جبريل المشهور : حينما سُئِل عن الإحسان فقال : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[1].

مرتبة المشاهدة :

« أن تعبد الله كأنك تراه » : حينما يعمل الإنسان عملاً لمخلوق مثله ، ويرى أن صاحب العمل واقف ينظر إليه ويراقبه ، فإنه يُجوِّده ويتقنه ويُحكمه ويُحسنه ما استطاع ، لأنه يريد أن يأخذ صاحب العمل أو ربُّ المؤسسة عنه فكرةً حسنة ، عسى أن يرقِّيه أو يعطيه علاوةً أو نحو ذلك من كلِّ ما يحرص الناس عليه من متاع الدنيا .

فكيف إذا كان هذا صاحب الخلْق والأمر ، إذا كان ربّك ورب العالمين هو : المطَّلع عليك وأنت تعمل ؟

إذن فالإحسان هو أن تعبده كأنك تراه . هذه هي المشاهَدَة وهذا هو الشهود .

مرتبة المراقبة :

« فإن لم تكن تراه فإنه يراك » : إذا لم تَرتَقِ إلى هذه المرتبة ، فإنَّه يراك ، هذا هو المؤكَّد . إذا لم تستحضر أنت هذا ، فاستحضر أنه يراك ويطَّلع عليك .

هذه هي المراقبة المطلوبة من الإنسان في ليله ونهاره . يراقب اللهَ قبل العمل : هل يُقْدِمُ عليه أو لا . ويراقبه أثناء العمل حتى يحسنه : « كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » ، تحاول أن تؤدي العمل أداء يرضيه عزَّ وجلَّ .

---

(١) متفق عليه : رواه البخاري في الإيمان (٥٠) ، ومسلم في الإيمان (٩) ، كما رواه أحمد (٩٥٠١) ، وابن ماجه في المقدمة (٦٤) ، عن أبي هريرة .

مراقبة الله في أداء الصلاة :

الذي يؤدِّي الصلاة وهو مراقبٌ الله ، غير الذي يؤدِّيها وهو غافلٌ عن الله . ما أكثر الذين يصلُّون ، يصلُّون ولكنهم لا يقيمون الصلاة . هناك المُصلِّي وهناك المقيم للصلاة . المُصلِّي هو الذي يؤدِّي الركعات أيًّا كان الأمر ، يخطفها خطفًا ، ينقرها نقر الدِّيكَة ، فهي صلاة لا تقرُّ عينه بها ، كما كانت تقرُّ عين النبي بالصلاة ، والتي كان يقول عنها : « قم يا بلال فأرِحنَا بالصَّلاة »[1] .

نحن الآن لسان حالنا يقول : أرحنا منها! حينما نُصلِّي نريد أن نخلص من الأمر ونفرغ منه . فهي صلاة (الأمر) لا صلاة (الحب) . لا نقول : أرحنا بها ، بل : أرحنا منها! عبءٌ نريد أن نتخفَّف منه .

الذي يراقب الله في صلاته التي يؤدِّيها ، يجدُ فيها قُرَّة عينه ، يراقب اللهَ في كلِّ عمل منها ، في كل جزئية من جزئياتها ، في كلِّ ركن من أركانها ، في كلِّ حركة من حركاتها ، يستوفي الشروط ، يستوفي الأركان ، يستوفي الآداب ، وأكثر من ذلك : إنه يستوفي روح الصلاة وهو (الخشوع).

قيل لحاتم الأصم : كيف تؤدِّي صلاتك؟ فقال : أسبغ الوضوء ثم آتي موضع الصلاة بسكينة ووقار ، فأكبِّر تكبيرًا بتعظيم ، وأقرأ قراءةً بترتيل ، وأركع ركوعًا بتخشُّع ، وأسجد سجودًا بتذلُّل ، وأجعل الجنة عن يميني ، والنار عن شمالي ، والكعبة بين حاجبي ، والصِّراطَ تحت قدمي ، وملك الموت على رأسي ، وذنوبي محيطة بي ، وقبل ذلك كله : عين الله تعالى ناظرة إلي ، وأتبعها الإخلاص ما استطعت ، ثم أُسلِّم عن يمين وشمال ، ولا أدري : أيقبلها الله منِّي أم يردُّها عليَّ[2]؟

هذه صلاة المراقبين ، الذين يراقبون الله في كلِّ عمل من أعمالهم .

---

(١) رواه أحمد (٢٣١٥٤)، وقال مخرِّجوه : رجاله ثقات ، لكن اختلف فيه على سالم بن أبي الجعد ، وأبو داود في الأدب (٤٩٨٦)، وصحَّحه الألباني في المشكاة (١٢٥٣)، عن رجل من الأنصار .

(٢) ذكره الغزالي في الإحياء (١/١٥١) .

OBEIKAN.COM

مراقبة الله بعد أداء العمل :

وبعد أداء العمل ، على المؤمن أن يسأل نفسه : هل تم هذا العمل بإتقان؟ هل أدى حقه ؟ هل أتم أركانه ؟ هل حقق شروطه ؟ هل وفى آدابه ؟ كم يعطي نفسه من الدرجات : ستين في المائة ؟ خمسين في المائة ؟ عشرين في المائة ؟ أو أقل أو أكثر .

وهذا هو المطلوب منك أيها المسلم : المراقبة لا الغفلة ، اليقظة لنفسك ولعملك ، ألا تعيش وأنت سكران بحبِّ الدنيا وبالغفلة عن الله عزَّ وجلَّ فلا يهمك : أَقُبِلَ عملُك أم لم يُقْبل ؟ أأدَّيته كما ينبغي أم أدَّيته على أيَّة صورة ؟ أأتبعته الإخلاص أم لا تتبع الإخلاص؟

راقب الله في أمورك كلِّها :

راقب الله عزَّ وجلَّ ، راقب الله في أمورك كلِّها صغيرها وكبيرها . راقب اللهَ في نفسك ، وراقب الله في أهلك وأولادك : ﴿ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا ﴾ (التحريم:٦). راقب الله فيمن حَوْلَك ، مُرْهُم بالمعروف وانْهَهُم عن المنكر . راقب الله في عملك وأَدِّ له حقَّه ، راقب الله في اللقمة التي تدخل بطنك ومعدتك ، راقب الله في الدرهم الذي يدخل جيبك . حاول أن لا تأكل حرامًا ، وأن لا تدَّخر حرامًا ، وأن لا يدخل بيتك حرام ، وأن لا تطعم أولادك من حرام ، فكلُّ جسمٍ نَبَتَ من حرامٍ فالنَّارُ أَوْلى به .

راقب الله أيها المسلم ، راقب الله في أمورك كلِّها ، واستحضر هذه الرقابة التي كانت شعار الصالحين ، الذين كانوا يراقبون الله في السرِّ والعلن ، والظاهر والباطن ، والخلوة والجلوة .

جلس أحدهم ، وكان حوله جماعة يترامون ، يرمون السهام ، رياضة الرمي ، التهديف ، ويتسابقون في هذا ، فجاء بعض الناس وأراد أن يكلِّمه ، فقال : ذكر الله أشهى ! ـ يريد : لا تشغلني عن ذكر الله ـ فقال : أنت وحدك . يعني : أريد أن أؤنسك . قال : معي ربي وملكاي . قال له : من سبق من هؤلاء ؟ قال : من غَفَر الله له[1].

---

(١) ذكره الغزالي في الإحياء (٣٩٩/٤) .

هو في حال ، وهذا في حال . هذا يسأل عن شيء ، وهذا مشغولٌ بشيء آخر .

هؤلاء هم أهلُ الآخرة ، هؤلاء هم أهلُ الله ، هم عمَّال الله عزَّ وجلَّ ، ينبغي أن نقتبس منهم . إذا لم نستطع أن نكون مثلهم ، فلْنحاول التشبُّه ، ولو من بعيد ، ولو بصيصًا من نور .

فتشبَّهوا إن تكونوا مثلهم إنَّ التشبُّه بالرجال فلاح

نسأل الله تبارك وتعالى أن ينير بصائرنا ، وأن يوقظ قلوبنا ، وأن يجعلنا من المراقبين له ، وأن يجعلنا من حزبه المتَّقين المفلحين .

أقول قولي هذا ، وأستغفر الله تعالى لي ولكم ، فاستغفروه إنَّه هو الغفور الرحيم ، وادعوه يستجب لكم .

الخطبة الثانية :

أيها الإخوة :

سنة الأضحية :

في هذه الأيام المباركات يستعدّ الناس لإحياء تلك السنة : سُنَّة أبينا إبراهيم من قبل ، وسنة رسولنا محمد ﷺ من بعد ، سنة الأضحية ، وهذه السنة لها فضلها ، ولها ثوابها عند الله تبارك وتعالى .

ومن السنن الحسنة التي سنَّتها الجمعيات الخيرية الإسلامية في السنوات الأخيرة : محاولة إشراك إخوتنا المسلمين الضعفاء والفقراء والذين يعانون المجاعات والأزمات في بلاد المسلمين المختلفة . فأحيوا سُنَّةَ مشاركةِ المسلمين بعضهم لبعض ، والمؤمنون إخوة ، «المسلمون تتكافأ دماؤهم ، يسعى بذمَّتهم أدناهم ، ويجير عليهم أقْصَاهُم ، وهم يَدٌ على من سواهم»[1]، و«المسلمُ أخو المسلم ، لا يَظْلمه ، ولا يُسلمه ، ومنْ كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته»[2].

---

(١) رواه أحمد (٦٦٩٢)، وقال مخرِّجوه : صحيح وهذا إسناد حسن ، وأبو داود في الجهاد (٢٧٥١)، وابن أبي شيبة في المصنف كتاب الديات (٢٨٥٤٧) ، والبيهقي في الكبرى كتاب قسم الفيء والغنيمة (٣٣٥/٦) ، وصحَّحه الألباني في صحيح أبي داود (٢٣٩٠) ، عن عبد الله بن عمرو ابن العاص .

(٢) متفق عليه : رواه البخاري في المظالم (٢٤٤٢) ، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٠) ، كما رواه أحمد (٥٦٤٦)، وأبو داود في الأدب (٤٨٩٣) ، والترمذي في الحدود (١٤٢٦)، عن ابن عمر .

OBEIKAN.COM

لهذا كان من العمل الصالح المبرور : محاولة إشراك إخوتنا المسلمين في صدقة الفطر أيام الفطر ، وفي الأضحية أيام الأضحية . وقد قامت لجنة كافل اليتيم الخيرية في قطر بعمل طيِّب ، حينما فتحت الباب لمن يريد أن يدفع ثمن أضحية ـ أو أكثر من أضحية ـ في بلد من بلاد المسلمين ، وهناك خمسة وعشرون بلدا .

وهذا عمل طيِّب ، فهناك بلاد فقيرة لا يكادون يجدون اللحم طوال العام . فهذه فرصة لكسب الأجر والمغفرة من الله تبارك وتعالى .

يستطيع الإنسان أن يدفع من مائة إلى ستمائة ريال حسب البلاد ، لأنَّ الأضحية ترخص وتغلو حسب الأقطار المختلفة . فمن لم يستطع أن يدفع الستمائة أو الخمسمائة فليدفع مائة ، والإخوة هنا في المسجد عندهم دفاتر وإيصالات لمن يريد ذلك . وهناك أيضًا حسابات مفتوحة لهذا الأمر في مصرف قطر الإسلامي وبنك قطر الدولي الإسلامي .

فالسعيدُ مَنْ حاوَلَ أن يشترك في هذا الأجر ، وأن يُساهم فيه ، والله سبحانه وتعالى لا يضيع عنده مثقال ذرة : ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (النحل:٩٦).

اللهمَّ اجعل يومنا خيرًا من أمسنا ، واجعل غدنا خيرًا من يومنا ، وأحسن عاقبتنا في الأمور كلِّها ، وأجِرْنا من خِزْي الدنيا وعذاب الآخرة .

اللهم لا تَكِلْنا إلى أنفسنا طَرْفَةَ عين ولا أقلَّ من ذلك . اللهمَّ اجمع كلمة المسلمين على الهدى ، وقلوبهم على التقى ، وعزائمهم على عمل الخير وخير العمل .

* * *

OBEIKAN.COM